الحصة التَّاسعة

مَكَانُ اليَوْمي:
المدِينَةُ والمَشيُ

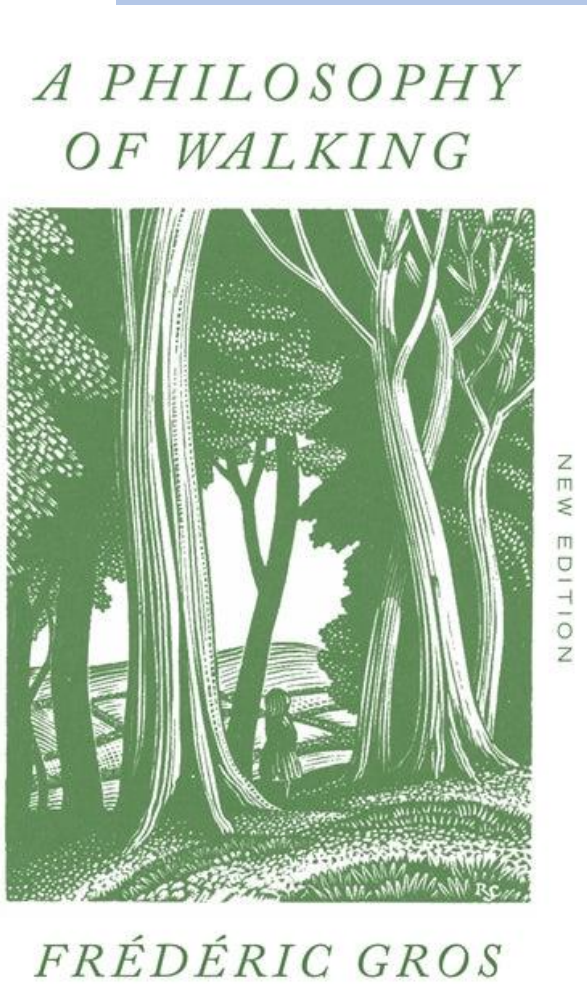

المَدِينَة

ولَّى عصر التمثُّل الذي هيمن في العصر الوسيط، عندما كانت المدينة ترجمة في الأرض لخريطة السَّماء بما تزخر به من سُدُم ونجوم. المدينة بأنوارها هي ترجمة لأضواء الفضاء. لكن لم ينقطع الحدس البشري عن تشبيه المدينة بجمال الكُسموس. ليس فقط البُعد الجمالي الذي ينبري من هذا التشبيه، بل ينبغي التوكيد كذلك على البُعد العملي؛ رواح ومجيء بين الغداة والعشيّ؛ مُشاة سائحون وأقدام سارحة، تخطُّ في الأرصفة ما لا تقرؤه؛ حركات عفوية وسيول بشرية، تنساب بين الحارات والشوارع. ماذا يمكن أن نقرأ في هذا المشهد؟ وما هي أبجديات المدينة والتركيبات الدلالية الممكنة؟ وأخيرًا، ما هي بلاغة المشي في المدينة والحديقة؟

النَّسيجُ الحَضَري

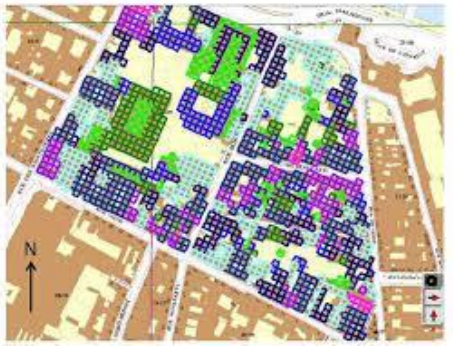

تقتضي القراءة نصًّا تمثُّله، والنصُّ في العربية هو البيان، ما هو معطى للإدراك؛ وفي اللغات الأخرى، اللاتينية مثلًا، النص هو **النسيج** (textus)، أي نسيج من العلامات والدلالات. يُصوّر هذا الاشتقاق المدينة على شاكلة النص الذي نقرؤه؛ أنسجة معمارية، عُقَدها الأبنية وأليافها الشوارع؛ تُقدِّم لوحة ناصعة عن دبيب الأفعال وضوضاء الحياة اليومية؛ علامات مرئية للتفسير، وسيميوطيقا حَضَرية تنعطف على تأويليات البحث عن المعنى، وتداوليات ترتيب المبنى. عندما يتحدَّث المعجم المعماري عن «**النسيج الحَضَري**»، فهو يُسلّم سلفًا بأنَّ المدينة تُقرأ كنص يختزن على دلالة ويحثُّ على تشكيل المعنى.

الدَّلَالَةُ والمَعْنَى

«**الدلالة**» معلومة، وهي المعطيات الحَضَرية من معمار وأبنية تتخلَّلها مجمل النشاطات والأعمال والأشغال، في الصناعة والتجارة والملاحة؛ و«**المعنى**» هو ما ينبغي ابتكاره والسَّعي نحو صوغه بما يُعبّر عن المعيش الفردي والجماعي. تُقدّم الاستعارة النصيَّة حقلًا خصبًا من الاعتبارات الممكن إسنادها إلى المدينة وفق ثنائيات سنعمل بإيجاز على استجلائها: الدلالة والمعنى، والثابت والمتحوّل، والمهندس والسَّاكن، إلخ. **الدلالة** هي قبل كل شيء معجمية مثلما نبحث في القاموس عن دلالة كلمة، فنعرف دلالة ما ندركه من أبنية وأمكنة في الحاضرة (هذا متجر، وهذا ملعب، وهذه مؤسسة...)، لكن نُشكِّل المعنى عندما نربط بين دلالة هذه المعماريَّات والغاية التي تصبو إليها، أي مجمل النشاطات العملية التي تتخلَّلها (المتجر للبيع والشراء، والملعب للرياضة، والمؤسسة للأغراض الإدارية أو الاقتصادية أو التجارية...).

الثَّابتُ والمُتَحَوِّل

مفاد ذلك أنَّ المعطيات المعمارية هي القشرة التي تختزن على اللب، هذا الأخير هو عُصارة الأفعال القصدية المتنوّعة والقابلة للتعديل حسب التوجُّهات والحاجات. يمكن الحديث إذًا عن الثابت والمتحوّل، «**الثابت**» وهو مجموع البنايات والعمارات وناطحات السحاب والمنازل والمتاجر والمؤسسات، و«**المتحوّل**» وهو ما يعتمل في هذه المعطيات المعمارية من حركات وممارسات ونشاطات، لأنها دائمة التحوُّل والارتقاء؛ وهي أفعال حثيثة لا تنضب. الثابت والمتحوّل هو الوجه الآخر لثنائية الاستراتيجية والتكتيكية كما رأينا في الحصة السادسة. المدينة الخالية لا معنى لها في ذاتها، سوى كونها عمارات وشوارع. ما يُعطي القيمة لهذه الهندسة، أي ما يُضفي على المدينة المعنى، هي مجمل الحركات العفوية والارتجالية والتي تتمثَّل في سعي المشاة، وهرولة السائرين، وسرعة المواصلات من سيَّارات وحافلات.

السَّكَنُ

كذلك البناية هي مجرَّد مواد مركَّبة من إسمنت مسلَّح وزجاج وأبواب ونوافذ. ما يُعطي للبناية معناها، فيما وراء الدلالة المادية الثابتة، هو ما يحدث فيها من وقائع بشرية هي حصيلة قصديَّات موجَّهة، أي: جُملة الممارسات العمليَّة من الإقامة والطبخ والاستجمام والعناية بالذات على العموم. تقول الاستراتيجية الهندسية للبناية أو العمارة فقط «**الواجب**»، واجب اتّباع الفراغات بين الغُرف، مثلًا الذهاب على اليمين لدخول المطبخ أو الذهاب على اليسار للولوج في الحَمَّام، لكن لا تقول «**الممكن**» الذي هو من اختصاص السلوك التكتيكي للساكن، وهو سلوك عفوي من حيث المشية والخفَّة واختيار الوجهة. تقول الاستراتيجية الهندسية «**نمط ثبوت**» البناية من حيث وضع الأبواب والنوافذ والحجرات، لكن تقول التكتيكية السلوكية «**نمط وجود**» السَّاكن، وحريته في تدبير المنزل وفق ذوق جمالي يرتضيه في تنظيم الغُرف والمطبخ، باختيار حجم الأثاث واللون والتَّصميم، إذا أراده تقليديًا أم عصريًا، إلخ.

الأسْلُوب

ما يمكن اكتشافه في فرادة الأداء اليومي؟ وكيف يمكن للفعل الذي يتكرَّر كل يوم أن يكون في الوقت نفسه فريدًا؟ إنها مفارقة الحياة اليومية، كونها تكرار في الأفعال وفرادة في الأداء. تتكرَّر الأفعال، لكن كل فعل كالبصمة، هو حدث فذّ واستثنائي، يحمل في طيَّاته إمكانيات الخلق والابتكار. إعادة ابتكار المدينة من إعادة اكتشاف حدث الفعل اليومي المتجدّد. ما يُعطي للمدينة ديناميتها هي الأفعال المتجدّدة بأداءٍ مغاير. الأفعال اليومية هي توقيعات السُكَّان، شأنها في ذلك شأن الأسلوب. المدينة نص واحد بأساليب متنوّعة وتأويلات مختلفة. يقرأ كل ساكن نص مدينته وفق طريقة خاصة في إضفاء المعنى، ويُرَكِّب أسلوب مدينته من وحي آداب السلوك وابتكار المعيش اليومي.

المَرْكَبَة-الاسْتِعَارَة

«في مَدينَة أثِينَا اليَوْم، تُسَمَّى وَسَائلُ النَّقْل العُمُوميَّة **ميتَافُورَايْ** (metaphorai). للذَّهَاب إلى العَمَل أو الرُّجُوع إلى البَيْت، تُؤْخَذُ «الاسْتِعَارَة»: الحَافِلَة أو القِطَار». بهذه الكلمات، يُصوِّر ميشال دو سارتو وسائل النقل في العاصمة اليونانية. ينطبق الأمر على معظم المدن العالمية التي تشهد بين حاراتها وشوارعها تنقُّل هذه الاستعارات العجيبة التي تُسَمَّى مركبات أو حافلات أو ميترو الأنفاق. نستقلُّ «استعارة»، بحكم أنَّ الاستعارة هي بالتعريف عبارة عن نَقْل، من الحقيقي إلى المجازي. نتنقَّل بالمركبات من الواقعي إلى الواقعي. يستعير المسافر في الحافلة أو القطار أو الطائرة مكانًا يتملَّكه مؤقَّتًا بحكم الثمن الذي يدفعه من أجل الرحلة التي ينوي القيام بها.

إعَارَة المقْعَد

وجه الاستعارة أنه استعار مقعدًا (borrow a seat) لا يعود له بالملكية الحقيقية، بل يشغله مؤقَّتًا في زمن الرحلة. إنها ملكية مجازية. يستعير المسافر مقعدًا للجلوس عليه، وهو نفسه داخل استعارة هي الحافلة أو القطار أو الطائرة، تنقله من مكان جغرافي إلى مكان آخر، ويجد فيه أوجه الاختلاف والتشابه من حيث المباني والأقاليم. للمسافر الانطباع بالطابع الاستعاري للأمكنة التي يتردُّد عليها. نركب استعارات هي وسائل النقل، ونسافر بسرعة فائقة بوساطة هذه الاستعارات المتنقّلة. يكمن وجه المجاز في أنَّ الجسد الذي يعجز بذاته عن التنقُّل بعجلة فائقة، يسافر بسرعة قصوى لكن محمولًا على الطائرة مثلًا. هكذا يتنقَّل الجسد بسرعة 800 كلم/ساعة، لكن مجازًا!

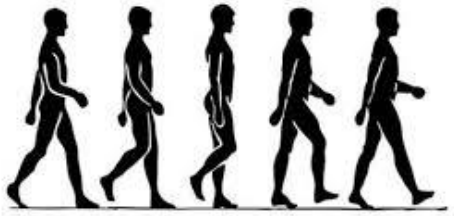

المَشْيُ

المشي هو المقياس الذي تتحدَّد به السلوكيات البشرية في رواحها وإيابها، وفي مختلف نشاطاتها وأغراضها اليومية. للمشي منطق خاص يفلت من التكهُّن، لأنه سليل قصدٍ قابل للتعديل في أيَّة لحظة. يمكن الذهاب يمينًا أو شِمالًا، والتباطؤ في الوتيرة أو الإسراع في الهرولة، والذهاب نحو المتجر أو العدول عن ذلك بالعروج على السينما. المشي سلوك عفوي وغير متوقَّع، وإن كان له منطق عملي يُدبِّره بتحديد الغاية التي يصبو إليها سلفًا واختيار الوسائل الكفيلة للتوصُّل بهذه الغاية. يقول أندري لوروا غوران: «كُنَّا مُسْتَعِدِّين لقَبُول كُلّ شَيْء باسْتِثْنَاء أنَّ بدَايَة وُجُودنَا كَانَ عَبْرَ القَدَم» (لورا-غوران Leroi-Gouhran). عرف الإنسان البدائي هذه العتبة المبدئية في المشي تحت مسمَّى «الصيَّاد الملتقط للثّمار».

كُوجِيتُو المَشْي

هنالك الكوجيتو القائل «أنَا أمْشي، إذًا أنَا أفَكِّر». يُقدِّم المشي مجالًا خصبًا للتفكير والتخييل؛ فضاء مفتوح على لانهائية الحركة وسط نهائية مضادَّات الحركة من عوائق الأشياء المنتصبة من بنايات ومركبات ومعالم. كان العديد من الكُتَّاب الرومانسيين، عندما يشتدُّ بهم الحال وتطول الفكرة عن الانبجاس، يغادرون مكان إقامتهم ويتوغَّلون في الغابة، يمشون لساعات وساعات، ويرجعون ببهجة خاصة هي الظَّفر بالأمر الذي كان يراودهم وأعاق الفكرة عن الميلاد. يسبق المشيُ إذًا الدماغ في الدرجة. يُصدِّق ذلك قول الكاتب الفرنسي من القرن السادس عشر ميشال مونتاني (Montaigne): «لا يَنْدَفع فِكْري مَا لم تَهُزَّه قَدَمَايْ». يحمل المشي جسد الفكر، وهو بالمقارنة معه، كالبنية التحتية بالمقارنة مع البنية الفوقية.

المَشْيُ نَقِيضُ السُّرْعَة

المشي نقيض السُّرعة، لأنَّ غايته في ذاته (التنزُّه في الغابة أو الحديقة)، والسرعة غايتها في غيرها، لأجل منفعة أو مصلحة. تستند مقوّمات الحضارة المعاصرة كلها إلى بداهة السرعة، لأنَّ الاستثمار الاقتصادي والتنافس التجاري والربح المالي تُعطي ذلك. من لا يفقه جوهر السرعة لا يُتاجر، إذا كان غرضه الربح الوفير وفي ظرف وجيز. أما المشي فيتطلب التريُّث ويفتح الإنسان على التأمُّل وأن يأخذ وقته في اعتبار الأشياء وتدبُّر العالم. إذا كان المشي هو الذاكرة الأصلية للبشرية ومفتاح الفكر، نفهم لماذا لا تتيح السرعة التفكير الهادئ والرصين، بل القبول الفوري لمعلَّبات الاستهلاك الاقتصادي والأيديولوجي.

المَشْيُ والتَّأَمُّل

ثم إنَّ المشي الذي يتيح التفكير الهادئ والرصين، يسمح بالعودة إلى الذات في نوعٍ من التخييل والاستبطان. مسوِّغ ذلك أنَّ الكلمة «تَفْكِير» (reflection) تفيد كذلك «الانعكاس». المشي بما هو مسيرة هو أيضًا كتابة السيرة بنوعٍ من عودة الذات إلى ذاتها تأمُّلًا واستبطانًا، أي العودة إلى أصولها الطبيعية والوجودية. المشي فعل فردي، من نظام المتوحِّد المنعزل، وهنا يلتقي المتسكّع بذاته ويشقُّ فيها أنهارًا من الخواطر والتأمُّلات، وهذا دأب الفنَّان والمفكِّر. في المدينة أو الغابة، يُقدِّم المشي سلوك المتوحِّد الذي يشقُّ طريقه فيما هو يشقُّ في ذاته أخاديد الأفكار. يقول ألكسندر لاكروا: «تُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ أَيْنَ أَنْتَ، ومَنْ أَنْت؟ سِرْ عَلَى غَيْرِ هُدَى انْطِلَاقًا مِنْ بَيْتِكَ».